أثر التصـــــوف

فى تكوين المواطن الصالح

للاستاذ السيد محمد عيد الشافعى

لكى تكون الأمة قوية مهابة حرة رشيدة فلا بد لها من أمرين معا - الأول - تدعيم الناحية الأخلاقية فى عموم أفرادها بحيث يصبح الفرد لبنة صالحة فى بناء أمة وصفها الله جل وعلا بأنها خير أمة - والثانى - التسليح المادى بشتى أنواعه أخذا بقول الله عز وجل (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) . . . وتلكما فى الواقع قوتان متلازمتان لا غنى لكل منهما عن الأخرى بل ربما كان احتياج الأمة إلى التدعيم الخلقى والأخذ بأحكام دين الله أولى ، فبذلك يستجلب نصر الله فى شتى الميادين الاجتماعية والثقافيـــة والحربية والاقتصادية والسياسية . قال تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) . وليس أدل على ذلك من قول الله عز وجل (ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) فلم تكن إذاً كثرة المسلمين فى العدد ولا ما أعدوه سببا إلى النصر فى أحرج مواقفهم بل كانت آفة الإعجاب فيهم بما هم عليه من كثرة وقوة سببا فى خذلانهم حتى ولوا مدبرين .

ولقد قال تعالى مبينا طريق النصر (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما زلتم منصورين على عدوكم ما تمسكتم بسنتى » ويقول أبو بكر الصديق رضوان الله عليه — إنما تنصرون بالمدد لا بالعدد . ويقول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

محذرا جيشه من آفة الرذيلة والمعصية إن ذنوب الجيش أفتك به من عدوه .

من هذه النصوص الصريحة يتبين أن ليس هناك نصر إلا من عند الله ونصر الله لا يكون إلا لمن نصره . لذلك كانت العناية بتدعيم الناحية الأخلاقية فى أفراد الأمة الإسلامية أوجب حيث إن ذلك هو السبيل الذى رسمه الله سبحانه وتعالى .

فإذا أهمل الراشدون من الأمة هذه الدعامة الأولى التى يرتكز عليها بناء الأمة ومجدها كان لذلك الإهمال ولا شك عاقبة من أوخم العواقب وهى أن تصبح الأمة هزيلة منحلة متداعية غير متحدة هدفا لكل غاصب كما كان حالنا بالأمس وأخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قيل أو من قلة نحن يومئذ . قال — لا . بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ليذهبن الله من صدور أعدائكم الرعب وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل: وما الوهن يارسول الله؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين لنا السبب المفضى إلى ذلك الضعف وإلى استهانة الأمم بنا وهو حب الدنيا وكراهية الموت حتى قال فى حديث آخر « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ، وقال الله تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) فلا يجوز لعاقل رشيد والحالة هذه أن ينتظر تغيير حال الأمة من الضعف إلى القوة ومن الضلالة إلى الرشد ومن ذل الاستعباد إلى الحرية والمجد بغير أن تغير الأمة أولا ما بنفسها وصدق الله العظيم حيث يقول (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فان نحن غيرنا ما بأنفسنا تحقق لنا وعد الله الثابت بقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) .

لاسبيل إذن إلا أن نعمل على إصلاح القلوب باستئصال داء الرذيلة منها فإنها إن صلحت صلح الأفراد

وصلحت تصرفاتهم فى سائر شئون الحياة منتفعين بنور الهدى القرآنى . وإن فسدت فسدت الأفـــراد وفسدت تصرفاتهم فى سائر شئون الحياة ولم يكن لسطوة القانون فى قلوبهم المعتلة من أثر . وليس من الحكمة أن نذهب بمرضى القلوب إلى أطباء العيون وإنما الواجب يحتم علينا أن نذهب بهم إلى المختصين بمعالجة القلوب والعالمين بأصل الداء .

وإذا كان التصوف الإسلامى علم وعمل وله كأى علم من العلوم حد وموضوع وثمرة . فحده التخلى عن كل خلق مذموم والتحلى بكل خلق محمود وموضوعه أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية وثمرته إصلاح الفرد ظاهرا وباطنا فضلا عما له بعد ذلك من الناحية العملية والإلهية . كان ولا شك أهل الاختصاص فى ذلك العاملون بأصل الداء والعاملون على إصلاح القلوب فى الأمة هم السادة الصوفية رضوان الله عليهم أجمعين القائمون بتهذيب النفوس والداعون إلى الله بنور الله ومن كان معهم على هديهم . وعلى هؤلاء السادة ومن كان على هديهم تقع المسئولية إن لم يعملوا على تحقيق ذلك جاهدين فإن الله عز وجل لا يكلف نفساً إلا ما آتاها وقد آتاهم الله ذلك العلم واختصهم به، ومن ثم كانت المسئولية واقعة عليهم دون سواهم من الأمة . (يوم ندعو كل أناس بإمامهم)

وقد يبدو هذا القول غريبا عند من يظن أن التصوف إنما هو رايات ترفع ودفوف تدق وزجاج يؤكل وشطحات ينطق بها المتصوف تقليدا أو من حاله الغالب عليه . فليس هذا هو التصوف . وإنما التصوف هو الخلق والأخذ بالعزيمة فى دين الله تعالى مع الاقبال عليه بكنه الهمة وتجريد القصد إلا منه وله بحيث لا يريد العبد من مولاه غير مولاه . ولا أدل على ذلك مما أثر عن القوم رضى الله عنهم فيقول الإمام محيى الدين ابن عربى قدس سره فى باب التصوف من فتوحاته — التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف وسئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن وأن الله أثنى عليه بما أعطاه من ذلك فقال وإنك لعلى خلق عظيم . ولذا يقول الإمام الجنيد رضى الله عنه — الطريق كلها مسدودة

إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته. وسئل رضى الله عنه ماعلامة الإيمان فقال : علامتـــه طاعة من آمنت به والعمل بما يحبه ويرضاه وترك التشاغل عنه بما ينقضى ويزول . ويقول الإمام الغوث الرفاعى رضى الله عنه ــ يظنون أن الطريقة تنال بالقيل والقـــال أو بكثرة المال. لا والله. ماهى إلا طريقة الذل والانكسار واتباع الكتاب وسنة النبى المختار . ويقول رضى الله عنه : ليست الطريقة تورث عن الأب والجد ولكنها طريقة العمل والجد والوقوف عند الحد وذر الدموع على الخد. ويقول الإمام الشعرانى رضى الله عنه ــ التصوف علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة . وما ورد فى ذلك كثير ، لأنه أصل متفق عليه عند القوم رضوان الله عليهم . ولذلك نرى حجة الإسلام الإمام أبا حامد الغزالى رضى الله تبارك وتعالى عنه يقول بعد إذ تبين له حقيقة التصوف وأهله ــ لقد علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو اجتمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وبالجملة ماذا يقول القائل فى طريقة أول شرط لها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله .

من هذا الفهم للتصوف نرى أنه قوة إيجابية فعالة فى الدفاع عن كيان الأمة ضد الفلسفات الإلحـــادية والمبادىء الهـــدامة وبالتالى هو قوة إيجابية فعالة فى بناء الأمه والنهوض بها فالصوفى يعمل فى الدنيا لربه متحققا من أنه فى عمله وحرفته عبد يعمل فى ملك سيده . قد يكون عاملا فى مصنعه ولكنه خير عمال هذا المصنع حيث يعمل على إتقان عمله لأنه يؤمن أن الله مجازيه على إتقانه له . وهنا نرى شيئا عجبا .. نرى أن عاملا كهذا ليس فى حاجة إلى

رقيب يحاسبه فهو يعلم أن الله رقيب عليه .. ولذا نرى أنه من الثابت فى صحيح السند أن الرجل فى الصدر الأول كان يقع فى بعض اللمم ولم يره أحد مطلقا من البشر ولكنه يذهب فى ظل عقيدته وإيمانه وخلقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له : لقد فعلت كذا يارسول الله فانظر إلى حكم الله فيما فعلت . أما اليوم فيحتال الفرد ليفعل ما يشاء فى ظل القانون حتى لا يقع تحت طائلته وإن أصاب غيره الضرر فى فعله وما ذلك فى الحقيقة إلا لتدهور الخلق

من ذلك كله ندرك أن التصوف طاقة روحية بناءة وأن علينا أن نعمل جاهدين على استغلال المخزون من هذه الطاقة الروحية فى نفوس أبناء الأمة الإسلامية إن أردنا أن تتعادل القوة الروحية مع القوة المادية فى العالم الإسلامى وذلك بتدعيم الناحية الأخلاقيه فى أفراد الأمة فمن ثم ينشأ المواطن الصالح الذى ينهض بها إلى ذروة المجد والله سبحانه الملهم للرشد .

محمد عيد الشافعى

إنذار من الله

. . . عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل علىّ النبى صلى الله عليه وسلم فعرفت فى وجهه أنه قد حضره شىء ، فتوضأ وما كلم أحداً ، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول : فقعد على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

يا أيها الناس إن الله يقول لكم ، مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم ، وتسألونى فلا أعطيكم ، وتستنصرونى فلا أنصركم .

فما زاد عليهم حتى نزل .